مَجلةٌ تُراثيَّة فصليَّةٌ محكَّمة

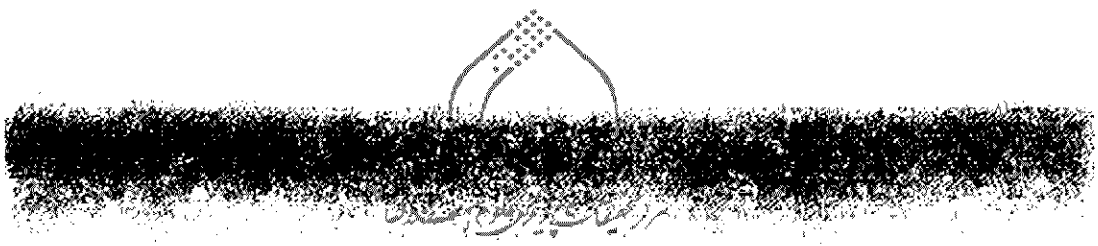

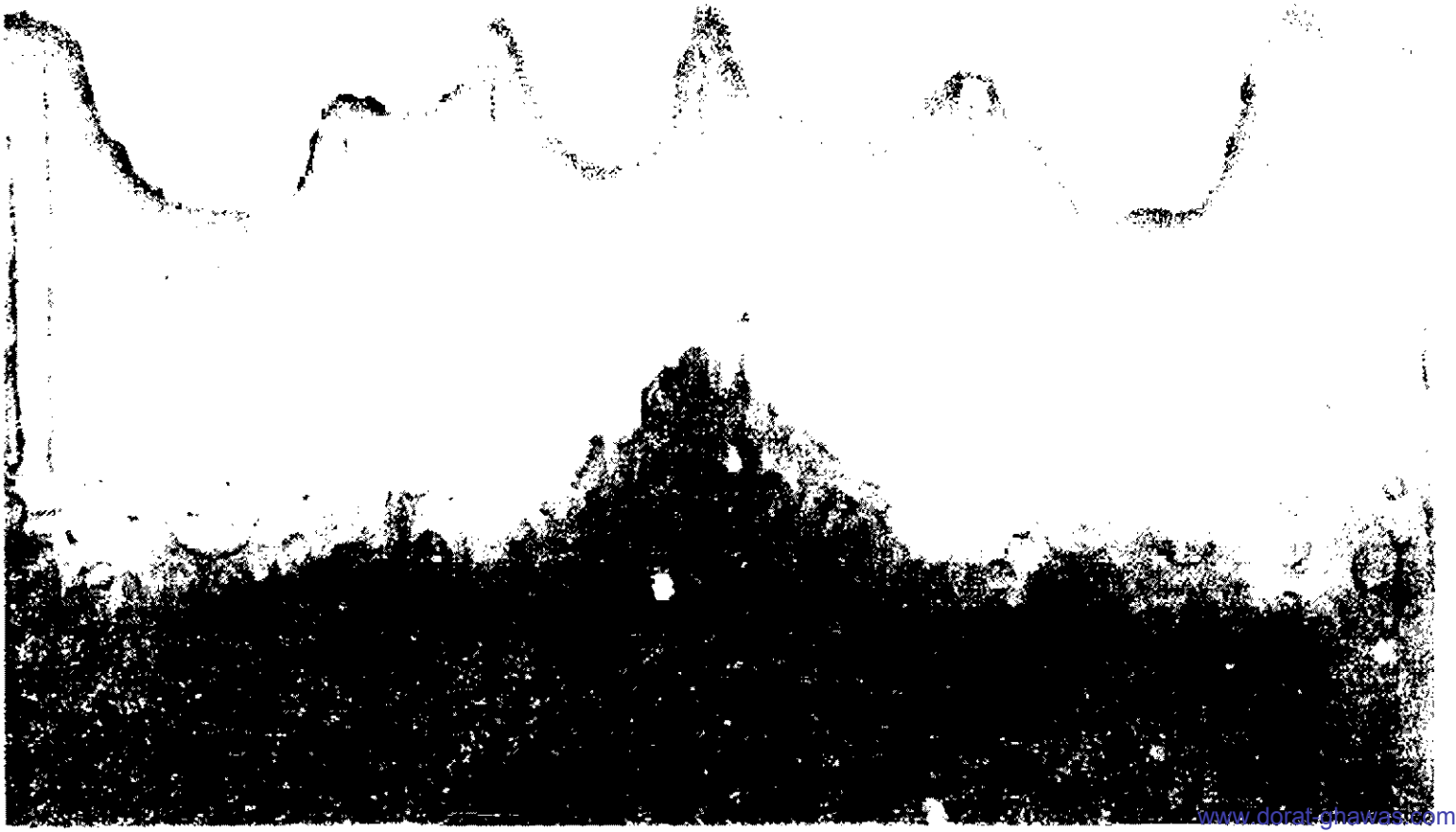

www.dorat-ghawas.com

المورد ـ العدد الثاني ـ المجلد الثلاثون

في هذا العدد

المحتوى

■ **الموردة**

• ومكر اولئك هو يبور ..... د . محمد البكاء ٣ ـ ٤

■ **بحوث ودراسات**

• جهود ابي عبيدة
في رواية الشعر ..... د . زكي ذاكر الفجر ٥ ـ ١٥

• تفاوت الشعر في
النقد العربي القديم ..... أ . د . فائزطه عمر ١٦ ـ ٢٤

• الخصيصه النصية في شعر الخوارج ..... د . عزمي الصالحي ٢٥ ـ ٣٠

• معالم اسلوبية عند ابن الاثير
من كتاب المثل السائر ..... د . احمد قاسم الزمر ٣١ ـ ٤٢

• الحقول الدلالية واشكالية المعنى ..... احمد جواد ٤٣ ـ ٤٧

• شعرية الخطاب واشكالية التجنيس ..... د . محمد صابر عبيد ٤٨ ـ ٥١

• جهود علماء الكوفة وبيوتها العلمية في
تواصل الثقافة العربية الاسلامية ..... د . نوري عبد الحميد العاني ٥٢ ـ ٥٩

• صفة الخلفاء ونقش خواتيمهم ..... د . محمد جاسم الحديثي ٦٠ ـ ٧٥

• تخطيط المدينة العربية القديمة ..... أ . د . حيدر عبد الرزاق كمونه ٧٦ ـ ٨٤

• رئيس المدينة الفاضلة في فلسفة الفارابي ..... أ . د . ناجي التكريتي ٨٥ ـ ٩٠

■ **نصوص محققة**

• المادة الصوتية في كتاب الايضاح
في القراءات للاندرابي ..... حقي عبد الرزاق لطيف الصالحي ٩١ ـ ٩٦

• شعر الحزين الكناني ..... عبد العزيز ابراهيم ٩٧ ـ ١١٢

• كتابان من المغرب ..... د . احمد مطلوب ١١٣ ـ ١١٧

■ **الجديد في المكتبة**

• ديوان عامر بن الطفيل العامري ..... أ . د . ايهم عباس القيسي ١١٨ ـ ١١٩

■ **اخبار التراث العربي** ..... حسن عربيي ١٢٠ ـ ١٢٦

■ **مطبوعات وصلت المجلة** ..... نجلة محمد ١٢٧ ـ ١٢٨

www.dorat-ghawas.com

معالم اسلوبية عند ابن الأثير من كتاب المثل السائر

د . احمد قاسم الزمر
كلية اللغات ـ جامعة صنعاء

تمهيد :

البلاغة من وسائل الكتابة ، وعندما يتحدث ابن الاثير عن الكتابة في كتاب بلاغي نقدي ككتاب المثل السائر ، انما يهدف الى ان الكتابة هدف من اهداف تعلم البلاغة ولازم من لوازمها ، واذا كان الهدف من تعلم النحو تقويم اللسان ، فإن الهدف من تعلم البلاغة تقويم اللسان والقلم معاً .

ولهذا كانت الكتابة معلماً مهماً من معالم الاسلوبية . وان الاسلوبية في أبسط تعريف لها هي تحليل لغوي موضوعه الاسلوب ، وشرطه الموضوعية ، وركيزته الالسنية .

ولكون الكتابة معلماً اسلوبياً باعتبارها تحليلاً لغوياً يعتمد على الموضوعية الالسنية فإن ثلاثة أركان من أركان الكتابة عند ابن الاثير تعد من اسس التحليل اللغوي الذي ترتكز عليه الاسلوبية .

فالركن الاول : وهو الركن الثالث عند ابن الاثير ان يكون خروج الكاتب من معنى الى معنى برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة ببعضها البعض ، وهو ركن يشترك فيه الكاتب والشاعر .

وليس من معنى لهذا الكلام الا ان يكون الاسلوب معاني مرتبة في الذهن تتبعها الفاظ منسقة ، اي ان الاسلوب يتكون من عنصرين الفاظ ومعان ويرتكز على قاعدتين :

١ ـ الافكار في عمقها وكثافتها .

٢ ـ المفردات في انتقائها وتراكيبها[١] .

وترابط المعاني يعني ترابط الالفاظ لان الالفاظ تابعة للمعاني والبلاغة كما يقول : الامام عبد القاهر الجرجاني هي توخي معاني النحو[٢] وحسب رواد البلاغة العربية من عبد القاهر الى ابن الاثير إنهم أتقنوا الكليات الاساسية التي تقوم عليها اليوم (معالم الاسلوبية) ، فاتقنوا دراسة الجملة بشقيها الخبري والانشائي ، وأتقنوا كذلك أساليب الخطاب العربي الادبي والعلمي ، كما أتقنوا الى حد كبير دراسة الصورة الشعرية ، من

www.dorat-ghawas.com

مجاز واستعارة وكناية وغيرها مما يعد من مباحث البلاغة الاساس المنهجي للاسلوبية .

الركن الثاني : وهو الركن الرابع عند ابن الاثير ان تكون الفاظ الكاتب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ، ولا أريد بذلك ان تكون الفاظاً غريبة فان ذلك من العيوب التي تقدح في بلاغة الكلام ، وهكذا الاسلوبية فإن معالمها ان تكون الالفاظ المنتقاة ، ومختارة اختياراً يلائم ذوق السامعين ، وهكذا نصت البلاغة العربية على ان شرط فصاحة المفرد ان يكون خالياً من الغرابة والا يكون مبتذلاً .

وهذا شرط اسلوبي بلاغي ، فليس من البلاغة ولا من اساليبها الادبية ان تكون اللفظة المفردة قلقة في سياقها التركيبي تؤذي مسامع المتلقي إما بغرابتها أو بابتذالها وكثرة ترددها على ألسنة السوقة والبائعين .

الركن الثالث من أركان الكتابة : يتضمن معاني القرآن الكريم .. فللقرآن حلاوة في ذوق المتذوقين للعربية ، وهو معدن الفصاحة والبلاغة ، وبقدر تمكن الكاتب من سلوك هذا المسلك والافادة من معاني القرآن يكون قد سلك اسلوباً في البلاغة راقياً ، فإن منهج القرآن في اختيار الكلمات ، ووضعها الموضع اللائق في سياق دلالتها ، منهج دونه خَرْطُ القَتَاد .

واذا كان قد تقرر ان من معالم الاسلوبية قراءة النص وتحليله لغوياً ، فإن الافادة من معاني القران ، وتوظيف مفرداته في سياق تلك المعاني يدلان دلالة واضحة على ان الكاتب قد استوعب النص القرآني واحسن قراءته وتذوقه وهذا التذوق دليل النضج المعرفي بقواعد العربية نحوها وصرفها ومعاجمها واجراس كلماتها وتراكيب جملها .

ويعدُّ ابن الاثير تحليل النص القرآني والحديث النبوي والقصائد او الابيات الشعرية من اهم الوسائل المعينة على الكتابة ؛ فقارىء هذه النصوص محتاج الى ان يتسلح بسلاح اللغة ويمتلك الحس النقدي البصير[٣] .

ولا يتوقف ضياء الدين عند هذا الحد من الحديث عن الكتابة وأركانها وأهميتها في قراءة النص الادبي وتحليله وتعلم الكتابة الاسلوبية ، بل يضع نموذجاً لتعلم المعالجة الاسلوبية عند قراءة النصوص الشعرية ولذلك قسم تحليل النصوص الشعرية الى ثلاث مراتب :

١ ـ مرتبة أدنى .
٢ ـ مرتبة وسطى .
٣ ـ مرتبة أعلى .

الاولى : هي نثر النص بلفظه دون زيادة او نقصان وهذا ليس من الاسلوبية في شيء ، وقد استكرهه ابن الاثير وعده من عيوب الكتابة الادبية .

الثانية : وهي ان ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ، وينصرف عن البعض بالفاظ اخرى وهذا اسلوب في الكتابة والتحليل لكنه لا يرقى الى مستوى البلاغة والاسلوبية .

الثالثة : وهي ان يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ وهنا كما يقول ابن الاثير يتبين حذق الصائغ في صياغته ويعلم مقدار تصرفه في صناعته ، وهذا نوع من الصياغة الاسلوبية ومعلم من معالمها فإن قارىء النص في هذه المرتبة إما ان يزيد على المعنى الذي يحمله النص فتلك مرتبة عالية من الصياغة والتحليل وان لم يستطع الزيادة فقد أحسن التصرف وأتقن التاليف فيكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الاول وهذا ما نسميه بالقراءة الاسلوبية للنص وضرب لذلك مثلاً بقول المتنبي :

ان القتيل مضرجاً بدموعه
مثل القتيل مضرجاً بدمائه[٤]

قرأ ابن الاثير هذا البيت هكذا : دمع المحب ودم القتيل متفقان في التشبيه والتمثيل ولا تجد بينهما بوناً الا أنهما يختلفان لوناً[٥] .

وهذا نموذج راقٍ للتحليل الاسلوبي ، حيث لم يتقيد الكاتب بنص المبدع بل أخذ المعنى وصاغه بالفاظ تدل على النضج المعرفي بقواعد اللغة ، والعمق بأساليب الكتابة .

ولم يفت ابن الاثير في مبحثه هذا ان يرشد الكاتب الى ما يكون به كاتباً اسلوبياً عميقاً غزير المعاني معسول الالفاظ ، وذلك بإشارة الى الخطوات الاتية :

١ ـ حفظ الدواوين الشعرية ذوات العدد .
٢ ـ نثر الشعر بالفاظه او بأكثرها كي يتدرب على الكتابة بالفاظ شعرية وإن كانت مستعارة .
٣ ـ أخذ المعنى من ذلك النص الذي حفظه ، وصياغته بالفاظ وعبارات من عنده وتلك خطوة جديدة تقربه من مستوى الكتابة الاسلوبية .
٤ ـ ان يواصل الصمود في سلم الترقي الكتابي باخذ المعنى ويكسوه ضروباً من العبارات الادبية[٦] .

وبهذه الخطوات والادمان على الكتابة والاستمرار فيها مدة طويلة من الزمن يحصل لخاطرك لقاح فيستنتج من النص المقروء معان غير تلك المعاني التي استنتجها في القراءة الاولى .

www.dorat-ghawas.com

والعمل بهذه الارشادات ، وسلوك تلك الخطوات ليس الا طريقاً الى نشأة كاتب مبدع يجمع بين الموهبة والصنعة ، يجتمع في أسلوبه الجمال المعرفي ، وجمال التذوق الفني للنصوص ، وهما مبدءان او معلمان أساسيان من معالم الاسلوبية في مفهومها الحديث .

وهل الاسلوبية الا تتبع القيم التعبيرية في النص لكشف قيمة الجمالية ؟ كما يقول الاسلوبيون[٧] ومن ثم فان الكاتب الاسلوبي يحتاج الى ثقافة مزدوجة لغوية وأدبية علم وذوق ولهذا كانت الكاتبة معلماً من معالم الاسلوبية عند ابن الاثير ليس في جانبها النظري فحسب ، بل في جانبها التطبيقي كذلك فقراءة النصوص وتحليلها أدبياً هو التطبيق العلمي لركائز الاسلوبية في مستوياتها المختلفة إفراداً وتركيباً وإيقاعاً وتصويراً .

وسوف أتناول في هذا البحث موضوعين على صلة وثيقة بالمنهج الاسلوبي :

١ ـ السياق الدلالي للكلمة العربية مفردة ومركبة .

٢ ـ المعالم الاسلوبية في كتاب المثل السائر .

١ ـ السياق الدلالي للكلمة العربية مفردة ومركبة . تعريف :

نظرية السياق هي إحدى نظريات تعريف المعنى في الدراسات اللغوية الحديثة ، ومؤسس هذه النظرية في إطارها التاريخي المعاصر هو اللغوي الانجليزي المشهور (فيرث) (FIRTH) وترتكز هذه النظرية على اساس ان معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة ، ولهذا يؤكد (فيرث) بأن المعنى لا ينكشف الا من خلال تسييق الوحدة اللغوية اي وضعها في سياقات مختلفة .

وعلى هذا الاساس فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها تلك الكلمات .

بيد أننا نقرأ في كتاب دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ كلاماً ليس بمناى عن نظرية السياق هذه يقول فيه :

واعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علماً لا يعترضه شك نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك[٨] ولا معنى لهذا الكلام سوى تاكيد الامام عبد القاهر على اهمية السياق في إبراز دلالة اللفظة المفردة او الجملة المركبة .

ودراسة السياق جانب من جوانب الاسلوب اكده علماء البلاغة ، وأرباب البيان وأبرزه بشكل خاص ابن الاثير في المثل السائر حيث أفرد له مقالة خاصة بعنوان (الصناعة اللفظية) .

وقسم هذه المقالة الى قسمين :

أولاً : الالفاظ المفردة :

وقد عالج ابن الاثير كل قسم على حدة معالجة أسلوبية ظهرت معالمها في قراءاته للنصوص الشعرية والنثرية ولا سيما النصوص القرآنية التي أوردها بإسهاب في كل قسم .

وقد استهل القسم الاول بذكر ثلاث ركائز أساسية لا غنى عنها للكاتب والشاعر والخطيب ، وهي من أسس نظم الكلام الادبي عند ابن الاثير وهذه الركائز هي :

١ ـ اختيار الالفاظ المفردة .

٢ ـ نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها .

٣ ـ الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف انواعه .

وهذه الركائز في الواقع ركائز مترابطة لا غنى لاي نص أدبي عنها وإلا لم يكن نصاً أدبياً .

وهذه الاسس مجتمعة هي الاصل في تأليف الكلام من الشعر والنثر .

وقد برهن ابن الاثير على اهمية اللفظ المفرد في السياق التعبيري من خلال التوضيح الذي أبرزه في عدد من النصوص القرآنية والشعرية واكتفي هنا بالاشارة الى عدد من النصوص ليتضح لقارىء كتاب المثل السائر كيف اوضح ابن الاثير معالم الاسلوبية فيه .

ففي قوله تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)[٩] وقوله تعالى : (رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً)[١٠] فرق ابن الاثير بين دلالة كل من البطن والجوف في الآيتين . ومع ان اللفظين بمعنى واحد وعلى وزن واحد ، تتفق حروفهما من حيث العدد بيد ان السياق فرض استعمال الجوف في الاولى والبطن في الثانية ، ولا يصح أسلوبياً استعمال احداهما مكان الاخرى .

ويرى ابن الاثير ان عظمة القرآن الكريم تتمثل في براعة اسلوبه وتفوقه على أساليب أرباب الصناعة اللفظية قاطبة فإن تركيب أساليبه هو الذي جعل لالفاظه هذا الحسن القاهر وهذا الجمال الباهر[١١] .

وقد يقول قائل ان الامر ظاهر فموضع القلب يختلف تماماً عن البطن الذي هو موضع الحمل فما الجديد الذي اضافه ابن الاثير ؟

والجواب عن ذلك من وجهين :

الاول : ان كلمة الجوف كلمة عامة تدل على وسط الشيء فهي تشمل البطن وغيره وقد قال في القاموس البطن جوف كل

www.dorat-ghawas.com

شيء[١٢] فموضع القلب وهو الصدر جوف فلو قال في الآية الثانية (رب إني نذرت لك ما في جوفي محرراً) لم يخرج عن نطاق الدلالة اللغوية .

لكن التذوق الفني ، والدقة الاسلوبية يمنعان الاستعمال ولذلك عدل القرآن عن استعمال الجوف مكان البطن والبطن مكان الجوف .

الاخر : ان الجوف من التجويف استلزم السعة والفراغ ففي لسان العرب[١٣] إن الجوفاء من الدلاء الواسعة ، ومن الشجر الفارغة ، وهذا في الواقع ينطبق بدقة على جوف المصدر الذي يقع فيه القلب ، ولا ينطبق على البطن ..

فليس في البطن ذلك التجويف حتى نطلق ، عليه الجوف ومن ثم كان لكل لفظة ، وقعها اللائق في الايتين .

وخذ مثلًا آخر أشار اليه ايضاً ابن الاثير من بين امثال كثيرة ذكرها ، فالقمل الوارد في القرآن في قوله تعالى (فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات)[١٤]

وردت ايضاً في بيت من الشعر للفرزدق هو قوله :

من عـــزه احتجـــزت كليب عنـــده
زربـــاً كـــانهم لـــديـــه القمـــل[١٥]

فلو تاملنا لفظة القمل في الآية والبيت لوجدنا ان هناك فارقاً كبيراً هنا وهناك ، فاللفظة كما ترى حسنة في الآية قبيحة في البيت الشعري فما سر الحسن في هذا الموضع والقبح في ذاك واللفظ هو هو ؟

أجاب ابن الاثير دون تردد فقال :[١٦]

إنما حسنت في الآية دون البيت الشعري لأنها جاءت في الآية متدرجة ضمن السياق ولم ينقطع عندها الكلام ، وجاءت في الشعر قافية أي آخراً انقطع الكلام عندها .

ولم يكتف بهذه القراءة الاسلوبية للآية والبيت الشعري بل اضاف قراءة اخرى وتعليلًا آخر يرتكز على اللغة والذوق الفني وهما قاعدتا التحليل الاسلوبي ، وفي ذلك يقول إنها - اي الآية - قد تضمنت خمسة ألفاظ هي :

الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وأحسن هذه الالفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم آخراً ، وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط ، ليطرق السمع أولًا الحسن من الالفاظ الخمسة ، وينتهي اليه آخراً ، ثم ان لفظة الدم أحسن واخف على السمع من لفظتي الطوفان والجراد ، ومن اجل ذلك جيء بها أخراً ..

ومعالم التحليل الاسلوبي الافرادي واضحة في هذا النص ، حيث حدد أولًا الحسن وغير الحسن من الالفاظ الخمسة الواردة في الآية ، ثم علل لمواقع هذه الالفاظ ، لماذا وضعت هذه في اول الجملة وهذه في وسطها وتلك في آخرها .

ثم ان الحكم بالحسن تارة ، وبالقبح تارة ، على لفظة القمل وهي لفظة واحدة ، وزناً ومعنى بسبب اختلاف موقعها ، إنما يعد من صميم التحليل الاسلوبي .

ويحسب لابن الاثير حديثه عن اللفظة المفردة وتنبيهه الى ان الحكم لها او عليها لا يستقيم الا بعد دخولها في سياق يظهر التوافق والونام بينها وبين سابقتها ولاحقتها .

وهذا ما عناه عبد القاهر بقوله : (وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لاخواتها)[١٧] فقد اتفق ابن الاثير والجرجاني ان التفاضل بين الكلمات المفردة مرهون بالسياق النصي الذي تدخل فيه هذه الكلمات ، اما قبل ذلك فلا تفاضل .

وقضية السياق قضية قديمة حديثة فعلى الرغم من نسبتها الى (فيرث) كما اسلفت الا ان للعلماء العرب والبلاغيين حضوراً بارزاً و لاسيما عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن الاثير وابن جني واضرابهم وكان حرياً بعلماء التفسير ان ينتبهوا اليها مبكراً حيث نجد النسق القرآني دقيقاً في هذه المسالة ، وما من كلمة في القرآن الا ووضعت الموضع الذي يراد لها ان تؤدي معناه ، بحيث لو وضعت في مكان آخر من الجملة لم تؤد المعنى المراد .

فما من لفظة في القرآن قدمت او أخرت او جاءت وسطاً الا وهذا الموضع مراد المتكلم لتؤدي الدلالة التي ارادها من هذا الكلام او ذاك .

وليس ادل على ذلك مما ذكره الجرجاني في قراءته بقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن)[١٨] فقد جاء تحليله أسلوبياً منطلقاً من التركيب السياقي للكلمات حيث وضعت كل كلمة في موضعها اللائق بها دلالياً . حيث قال (ان جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء لله وعبدوهم معه تعالى) وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فتقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، بينما لو اخر شركاء فقيل (جعلوا الجن شركاء لله) لم يفد ذلك المعنى ولم يكن فيه شيء اكثر من الاخبار عنهم بانهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، أما إنكار ان يجعلوا لله شريكاً ويعبدوا معه غيره فلا وجود له في الجملة مع تاخير لفظة شركاء ، حيث يمكن ان يقال : إن الانكار منصب على جعل الجن شركاء ، اما غيرهم فلا مانع ان يكونوا شركاء لله[١٩] وهذا ما لم تقله الاية صراحة وإنما يقرأ بنائياً واسلوبياً من تذوق اللغة ، وإدراك اسرارها .

www.dorat-ghawas.com

ثانياً : الجمل المركبة :

في هذه الفقرة سوف نتناول مع ابن الاثير دراسة الكلمة في السياق التركيبي وهو ما يعرف عنده بصناعة تركيب الالفاظ ، وقد أوضحنا سلفاً أنه انتهى الى ما انتهى اليه سلفه عبد القاهر الجرجاني وهو انه لا مزية ولا فضل للكلمة المفردة قبل دخولها في السياق التركيبي الا من حيث الالفة والاستعمال فالمعول عليه عنده بعد اختيار اللفظة الموسومة بالفصاحة هو حسن التاليف ، وجودة التركيب ، حيث توضع الالفاظ مواضعها وتجعل في اماكنها لتؤدي دورها في الدلالة .

واذا كان المعنى جيداً والتركيب فاسداً ، فسدت قيمة العمل الادبي ، وفقد رونقه ، وحلاوته .

وفي ضوء ذلك يفهم تاكيد ابن الاثير على حسن تاليف الكلام ولماذا كان للكلمة بعد تركيبها حكم يختلف عن الحكم الذي كان قبل التركيب وذلك انه ـ نتج ـ عنه اي عن التركيب فوائد من التاليفات ، والامتزاجات ما يخيل للسامع ان هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة .

ويتخذ ابن الاثير من اللآلىء مثلاً للكلمات فان تنظيمها وتاليفها يخلق فيها جمالاً يخلب الابصار وتفقد اللآليء قيمتها الجمالية اذا ما تناثرت وكانت غير منتظمة في عقد وهكذا الكلمات فإن جمالها في تناسقها وحسن ترتيبها ووضعها المواضع اللائقة بها تقديماً وتاخيراً وحذفاً وذكراً وتجنيساً وموازنة وتصريعاً الى آخر ما هنالك من معالم الاسلوب والوان البديع وجمال التعبير .

واذا كنا نتحدث عن معالم الاسلوبية في الالفاظ بعد تركيبها عند ابن الاثير فلا شك انه قد ابدع أيما إبداع في ابراز هذه المعالم في عدد من المحسنات البديعية وأبرز ذلك في قراءاته لعدد من النصوص القرآنية والحديثية والشعرية وغيرها من نصوص النثر الفني ، ونص على ان صناعة تاليف الالفاظ في نسق أسلوبي يبرز جمالياتها ينقسم الى ثمانية أقسام هي :

السجع والتصريع والتجنيس ، والترصيع ، والموازنة ولزوم ما لا يلزم ، والمعاظلة واختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها ..

واكتفى هنا باستخلاص المعالم الاسلوبية عند ابن الاثير في القسمين الاتيين :

أ ـ السجع ودلالاته السياقية :

وعرفه ابن الاثير بانه تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد[٢٠] وبصرف النظر عما قيل في السجع من ذم فان استخدام القرآن له بهذه المساحة الواسعة يخرص ألسنة المتقولين بذمه . ولا حجة في حديث (أسجع كسجع الكهان) فالرسول صلى الله عليه وسلم لم ينه عن السجع وإنما نهى عن سجع الكهان الذي يقلب الحقائق ويجعل الباطل حقاً والحق باطلاً كما ورد في سبب ورود هذا الحديث .

ثم ان النصوص المسجوعة ليست كلها على درجة عالية من البلاغة ، ولذلك اشترط ابن الاثير لبلاغة الكلام المسجوع اربعة شروط :

الاول : اختيار مفردات الالفاظ .

الثاني : اختيار التركيب .

الثالث : ان يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى وليس العكس .

الرابع : ان تكون كل من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى مغاير لمعنى الاخرى[٢١] ، وفي ضوء هذه الشروط ووفقاً لمعاييرها جاء السجع القرآني والنبوي وكلام البلغاء من العرب من مثل قوله تعالى : (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ، خالدين فيها ابداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً)[٢٢] ومثل قوله عليه الصلاة والسلام (ايها الناس افشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) .

ومن كلام العرب قول قيس بن ساعدة الايادي (أيها الناس اسمعوا وعوا إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت) .

وبنظرة اسلوبية فاحصة في النصوص المذكورة وقفنا على مدى تحقيق تلك الشروط في مجملها ، فالالفاظ واضح فيها الاختيار ، والتراكيب منسقة بدقة ، والاسلوبية في مجملها نظرة جمالية تتخلق من خلال الصياغة كما ان توزيع المفردات انبثق من تلك النظرة الجمالية .

وكل من الاختيار والتوزيع يشكلان معاً معياراً اسلوبياً في دراسة النص الادبي وبمراجعة سريعة للنصوص المذكورة نجد ان اللفظ في الكلام المسجوع تابع للمعنى ، فسعيراً ونصيراً في الاية جاءا متناسقين تمام التناسق مع ما قبلهما وكانهما لبنتان في بناء محكم ينقصه وضع هاتين اللبنتين فسعيراً جاءت متناسقة تمام التناسق لـ (لعن الكافرين واعد لهم ..) .

ونصيراً ايضاً متسقة ، مع الموقف الذي لا يجد فيه الكافرون بعد ان اعد لهم السعير ـ من يواليهم ولا من يناصرهم ، ومن ذا الذي يجرأ على مناصرتهم في ذلك اليوم الذي يفر فيه المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه .

اما الشرط الرابع فقد تحقق تمام التحقق في الاية وغيرها من الجمل السجعية المذكورة فمعنى سعير غير معنى نصير ، وكذلك السلام والطعام ونيام وسلام كل لها دلالتها حتى كلمة

www.dorat-ghawas.com

السلام وسلام وان اتفقنا لفظاً فقد اختلفتا معنى فالسلام الاولى في الحديث يعني السلام المعروف بين الناس في الدنيا اما (تدخلوا الجنة بسلام) فيفسره قوله تعالى (وادخلوها بسلام آمنين) .

وقل مثل ذلك في (مات ، وفات ، وآت) فلكل منها دلالتها في سياقها النصي .

وقد ذكر ابن الاثير كثيراً من النصوص المسجوعة واستطرد في ذلك الى الخطب والامثال وغيرهما .

بيد ان الذي يعنينا في هذا المقام هو البحث عن معالم الاسلوبية في كتاب المثل السائر في نهاية مبحث السجع حيث قسم السجع في هذا المبحث الى ثلاثة اقسام :

الاول : ان تكون الفاصلتان متساويتين لا تزيد احداهما على الاخرى كما في قوله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر)[٢٣] .

فالجملتان متساويتان في عدد الاسماء والحروف والافعال ..

الجملة الاولى	الجملة الثانية
أما	أما
اليتيم	السائل
فلا	فلا
تقهر	تنهر

وهذا التساوي في الالفاظ والدلالات وبهذه الدقة دون اختلال يعد احد معالم الاسلوبية وقد ابرز هذا المعنى ابن الاثير بقوله (الا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الاجزاء حتى كانها افرغت في قالب واحد وأمثال ذلك في القرآن كثير)[٢٤] .

فهذه النظرة الى البنى ووظائفها داخل النظام اللغوي لم تات الا في ضوء منهج سلكه ابن الاثير ودار حوله في كتابه وهو ما يسميه (بير جيرو) الاسلوبية الوصفية او أسلوبية التعبير[٢٥] .

الثاني : ان تكون الفاصلة الثانية اطول من الاولى لا طولا يخرج به عن الاعتدال فان ذلك يقبح ويستنكر ومثاله قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، واذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً)[٢٦] . فهنا ثلاث جمل تكون كل منها وحدة دلالية على ان الثلاث الجمل تكون مقطعاً يصور قضية من قضايا أهل النار .

السمة الاسلوبية لهذا التعبير القرآني الجميل تتمثل في :

١ ـ اختيار وزن واحد هو صيغة فعيل ليختم به كل وحدة دلالية من الوحدات الثلاث مع اختلاف معنى كل من الكلمات السجعية الثلاث .

٢ ـ ان هذه الوحدات الدلالية متساوية الطول ، وهذا التساوي في عدد الكلمات يقابله تساوٍ في الدلالة مما يعني ضمناً ان اختيار الالفاظ والتراكيب جاء بدرجة متوازية وهذا التوازي هو احد معالم الاسلوبية .

فالتوازي يعني نوعاً من التشابه ، فليس هناك تطابق تام ولا تمايز مطلق كما يقول « بوري لوتمان » كما ان التوازي قد ينظر اليه باعتباره ضرباً من التكرار لكنه تكرار غير كامل كما اشار الى ذلك الباحث البولندي « اوسترليتر » ASTERLITRS[٢٧] .

الثالث : ان تكون الفاصلة الثانية اقصر من الاولى ، ويرى ابن الاثير ان هذا النوع من السجع اسلوب معيب وسبب عيبه ان السجع يكون قد استوفى امده في الجملة الاولى بحكم طولها ، فإذا جاءت الجملة الثانية قصيرة تاتي كالشيء المبتور فيكون السامع كمن وقف دون الوصول الى غايته .

وهذا النوع من الاسلوب يتحدد في إطار الاسلوبية الوصفية ، وهي اسلوبية الاثر وتتعلق بعلم الدلالة .

وهذا المنهج الاسلوبي يعتبر جمال النص في نفسه ، وانه غاية مرادة للمبدع وليس وسيلة للوصول الى المتلقي .

فموضوع الاسلوبية الوصفية كما حددها « شارلي بالي » « Ch . Balley » هو التعبير + الفكرة ذات المضمون الوجداني المستلهم من العبارة اللغوية مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها . وهذا القسم يحتوي كل هذه العناصر بصرف النظر عن اثره على المتلقي .

ب ـ التصريع ودلالاته السياقية :

ويعرفه ابن الاثير بانه في الشعر بمنزلة السجع من الكلام المنثور وفائدته انه قبل كمال البيت من القصيدة تعلم قافيتها وشبه البيت المصرع بالباب له مصراعان متشاكلان .

بيد انه قسمه الى مراتب سبعة ، وهذا التقسيم يدل على الدقة في معرفة الفروق بين لقطة واخرى في سياق التراكيب اللغوية ، وهي فروق تدرك بالقراءة الاسلوبية للنصوص . ومراتب التصريع التي ذكرها ابن الاثير هي :[٢٨]

١ ـ ان يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه في فهم معناه غير محتاج الى ما يليه ويسمى التصريع الكامل ، وهذه اعلى درجات التصريع وذلك كقوله :

www.dorat-ghawas.com

افاطم مهلاً بعض هذا التدلل وان
كنت قد ازمعت هجراً فاجملي

٢ ـ ان يكون المصراع الاول مستقلاً بنفسه فاذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل[٢٩]

٣ ـ ان يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع الاخر ويسمى التصريع الموجه ومثاله :

من شروط الصبوح في المهرجان
خفة الشرب مع خلو المكان

٤ ـ ان يكون المصراع الاول غير مستقل بنفسه ولا يفهم معناه الا بالثاني ويسمى التصريع الناقص ومثاله :

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان[٣٠]

٥ ـ ان يكون التصريع في البيت بلفظه واحدة وسطاً وقافية ويسمى التصريع المكرر كقوله :

فكل ذي غيبة يئوب
وغائب الموت لا يئوب[٣١]

٦ ـ ان يذكر المصراع الاول ويكون معلقاً على صفة ياتي ذكرها في اول المصراع الثاني ويسمى التصريع المعلق ومنه قوله :

الا أيها الليل الطويل الا انجلي
بصبح وما الاصباح عنك بامثل[٣٢]

٧ ـ ان يكون التصريع في البيت مخالفاً لقافيته ويسمى المشطور وهو انزل درجات التصريع ومن قوله :

أقلني قد ندمت على الذنوب
وبالإقرار عدت عن الجحود[٣٣]

فاذا ما امعنا النظر في هذه المراتب وشواهدها الشعرية ، وتعليقات ابن الاثير على تلك الشواهد فإننا سنستخلص الخصائص الاسلوبية الاتية :

(أ) ان الروابط الدلالية تتبعها على الدوام روابط لفظية .. ومهما تكن ضآلة الروابط اللفظية فإنها تؤدي دوراً مهماً في الصياغة اللغوية والترابط المعنوي ، ففي بيت امرىء القيس « أفاطم مهلاً » نجد ان كل مصراع منه مفهوم المعنى بنفسه لكن وجود حرف العطف في الشطر الثاني من البيت ادى الى ترابط دلالي دقيق بين المصراعين على الرغم من استقلال كل شطر بمعناه ، فاستخدام الهجر في الشطر الثاني إنما يستقيم نتيجة للعلاقة التي بلغت حد التدلل ولو لم تكن علاقة لم يكن هجر وفي البيت الاخر (قفا نبك) استطاع الباء ان يربط المصراعين دلالياً بعمق حيث جعل الجار والمجرور (بسقط) متعلقاً لفظياً (بنبك) وتبع هذا التعلق اللفظي ترابط دلالي فجعل (سقط اللوى) محلاً للبكاء (وبين الدخول فحومل) تحديد دقيق للموضع الذي تم فيه البكاء فالباء بحجمه المتواضع ودلالته المحدودة ـ وهي هنا الظرفية ـ أفاد ذلك الربط المحكم الذي أدركناه من القراءة الاسلوبية للبيت الشعري .

(ب) ان التلاعب بالجمل تقديماً وتاخيراً ، وتحوير النصوص وقلب مصارعها وسبل استخدام الكلمات بين الاشتقاق والجمود كل ذلك خاصية اسلوبية لا يقدر عليها الا المبدعون من الشعراء والكتاب ، ولذلك قال ابن الاثير في التعليق على بيت ابن الحجاج البغدادي .. فان هذا البيت جعل مصراعه الاول ثانياً ومصراعه الثاني اولاً ، يقصد بذلك انه يمكن قراءة البيت هكذا :

خفة الشرب مع خلو المكان
من شروط الصبوح في المهرجان

فقدرة الشاعر على مثل هذه الصياغة والتلاعب بالجمل ظاهرة تستحق الاهتمام .

ويشارك ابن الاثير في ذلك الامام يحيى بن حمزة حيث قال بعد ذكر هذا البيت :[٣٤]

فإن شئت جعلت الصدر عجزاً والعجز صدراً ـ وما هذا حاله فهو من انجدة بمكان زين ولا يكاد يوجد الا في مقاصد الشعراء المفلقين .

ومن هذا المنطلق كان تمام آلة البلاغة كما يرى ابو هلال العسكري : العلم بمفاخر الالفاظ وساقطها ومختيرها ورديئها ، ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام[٣٥] وهذا الكلام في غاية الروعة ومن صميم المنهج الاسلوبي فالاسلوبية كما أسلفنا تنطلق من اللغة مفردات وتراكيب .

وقراءة النص وفق المنهج الاسلوبي يعني بادىء ذي بدء تحديد مفردات النص من حيث الجودة او الرداءة ومعرفة تراكيب ذلك النص قوة وضعفاً والحكم على هذا وذاك .

وهذه وظيفة نقدية كما هي وظيفة اسلوبية فالدراسة الاسلوبية من حيث المبدأ عملية نقدية قائمة على الاختيار من

www.dorat-ghawas.com

الظاهرة اللغوية ، وتبحث في اسس الجمال المحتمل قيام الكلام عليه[٢٦] .

٢ ـ المعالم الاسلوبية في كتاب المثل السائر :

ما من شك ان كتاب المثل السائر اطار عام للكتابة العربية وما ينبغي ان يكون عليه اسلوب الكاتب ، وما الادوات التي تلزم الكاتب ما لا يلزم ، المبدع ، وفي هذا السياق سوف أركز على أبرز المعالم الاسلوبية ـ كما أوضحها ابن الاثير ـ في كتابه الكاتب المثل السائر في الجزء الخاص بالصناعة المعنوية والذي يشمل المباحث الاتية :

أولاً ـ الاستعارة :

بادىء ذي بدء فان الاطار العام لمباحث الصناعة المعنوية كما ذكرها ابن الاثير هو : ان العرب كما كانت تعتني بالفاظها فتصلحها وتهذبها فان المعاني أقوى عندها واكرم عليها ، واشرف قدراً في نفوسها .

وقبل الدخول في قراءة ابن الاثير لنصوص الاستعارة ونماذجها التطبيقية أزعم هنا ان تعريف ابن الاثير للاستعارة يختلف عن تعريف علماء البلاغة الاخرين حيث جعل الاستعارة أحد اقسام المجاز الثلاثة وهي :

١ ـ توسيع الكلام .

٢ ـ التشبيه .

٣ ـ الاستعارة[٢٧] .

وهذا التقسيم يبدو ان ابن الاثير انفرد به ، فلم يتاثر فيه بمن سبقوه بل لعله استوحاه من واقع نصوص الادب العربي .

وربما كان لهذا التقسيم اثره في قراءة ابن الاثير لنصوص الادب العربي قراءة دلالية معتمدة على اللغة والذوق معاً .

ومن هذا التمهيد ننطلق لنتعرف على طريقة ابن الاثير في قراءة نصوص من الاستعارة :

١ ـ قال البحتري :

اذا اسفرت اضاءت شمس دجن

ومالت في التعطف غصن بان[٢٨]

وردت كلمة شمس بروايتين بالنصب والرفع ، وباختلاف حركة الاعراب اختلفت الدلالة ، كما قال الامام عبد القاهر (البلاغة توخي معاني النحو) فرواية النصب تعني ان في الفعل ضميرا (أضاءت) وهذا تشبيه معناه ان المرأة الموصوفة اذا اسفرت . والفاعل مستتر تقديره هي ـ اذا أسفرت اضاءت الشمس اي ان الشمس تستمد ضوءها من المرأة الموصوفة حين تسفر .

أما على رواية الرفع فالامر مختلف إعراباً ومعنى وحيث اختلف المعنى اختلفت الصورة البلاغية اي اختلف الاسلوب فانتقل من اسلوب التشبيه الى اسلوب الاستعارة وتكون الشمس هنا فاعلا ويكون المعنى اذا أسفرت أضاءت باعتبارها هي شمس دجن فشمس هنا تعني المرأة فهو استخدام مجازي ولذلك كان استعارة ، ولا يعود الضمير حينئذ الى من تقدم ذكره ، وإنما يكون الكلام مرتجلاً .

والدجن ظل الغيم في اليوم المطير وفي هذا الموضوع دقة وغموض وحرف التشبيه يحسن في الاول دون الثاني اي في حالة النصب دون الرفع فابن الاثير هنا يحلل هذا البيت الاستعاري الجميل تحليلاً لغوياً معتمداً على البلاغة والاسلوبية معاً ، ثم نسأل ما الفرق بين البلاغة والاسلوبية والجواب قد لا نجده عند ضياء الدين ابن الاثير لكن باحثاً معاصراً هو الدكتور شكري عياد بحكم حداثته فقد اهتدى الى الاجابة عن هذا السؤال في وقت مبكر من حياته البحثية واتضحت له الرؤيا ليجد الفرق الدقيق بين البلاغة والاسلوبية فقال :

ان علم البلاغة علم لغوي قديم ، وعلم الاسلوب علم لغوي حديث[٢٩] اذن الفرق زمني ليس الا ، والبينات الاسلوبية تعد تطويراً لمناهج البلاغة القديمة وانما جاءت بثوب جديد يختلف عن ثوب عبد القاهر والزمخشري وابن الاثير فالأسلوبية اذا بلاغة ألبست ثوباً معاصراً لكنهما معاً يشكلان علماً مهماً من علوم اللغة .

ولا غرو بعد ذلك ان نجد في الموسوعة البريطانية إشارة الى أهمية الاستعارة في السياق الدلالي فقد جاء في احد تعريفاتها ان الاستعارة (نقل الاسم من سياقه الحرفي الى سياق آخر لا يكون حرفياً وهذا السياق غير الحرفي هو السياق الدلالي او السياق المعنوي)[٣٠] .

٢ ـ وأزيدك عزيزي القارىء مثلاً آخر هو من باب الاستعارة وهو قوله تعالى (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال)[٣١] فإن تغير حركة الكلمة من ضمة الى فتحة غير الاعراب وغير المعنى فقراءة الرفع (تزول) ليست من الاستعارة في شيء فاللام للابتداء فزوال الجبال امر وارد .

لكن رواية النصب اعتبرت اللام لام كي ، والفعل بعدها منصوب بها ، والجبال ها هنا طوي فيها ذكر المستعار له وهو أمر الرسول ﷺ ، فزوال الجبال علة لمكرهم وليس الامر كذلك فالجبال لا تزول مكروا أم لم يمكروا ، اذن فالجبال هنا استخدمت في غير ما وضعت له والذي كاد يزول بسبب مكرهم هو امر الرسول ﷺ وما جاء به من الآيات المعجزات والمعبر عنه بالجبال من قبيل الاستعارة لشبهه بالجبال في ثبوتها واستقرارها .

اي انهم مكروا مكرهم لكي تزول منه وبسببه الآيات والمعجزات التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال ، لكن استخدام (كاد) يدل على عدم الزوال لان كاد خبرها المثبت

www.dorat-ghawas.com

منفي كما يقول النحويون .

هذا التحليل الاسلوبي ليس سوى نتاج لتراكم معرفي لغوي لمستويات اللغة نحوها وصرفها وإعرابها ودلالاتها ، وهذا التراكم هو احد معالم الاسلوبية المعاصرة وليس ذلك جديداً كل الجدة على علماء البلاغة والنقد الادبي وان كان جديداً ومبتكراً بالنسبة لعلماء النحو الذين اكتفوا برصد حركات الإعراب ، وآثارها الظاهرة .

ثانياً ـ الالتفات :

الالتفات فن بديع من فنون البلاغة وأسلوب لطيف من أساليب العربية وملمح دقيق من ملامح الاسلوبية .

والمراد به الانتقال من صيغة الى صيغة ومن خطاب الى غيبة ومن غيبة الى خطاب الى غير ذلك من انواع الالتفات وقد يكون للانتقال من الماضي الى المستقبل او العكس ، وسمي بذلك أخذاً من التفات الانسان يمنة ويسرة فتارة يقبل بوجه وتارة يعرض وهكذا .

ولن أخالف ابن الاثير هنا في تقسيمه الالتفات الى ثلاثة اقسام فهو تقسيم مقبول الى حد كبير على ان اكتفي في كل قسم بقراءة نص واحد من النصوص التي اوردها ثم البحث في قراءة تلك ومدى موافقتها للقراءة الاسلوبية للنصوص الادبية .

القسم الاول : الالتفات من الغيبة الى الخطاب وقد اثرى ابن الاثير هذا القسم من الالتفات بقراءة وتحليل احد عشر نصاً تسعة من القرآن ونصين من الشعر وذلك ان دل على شيء إنما يدل على ثراء هذا الاسلوب من اساليب العربية ولطافته ودقته في ابراز الدلالات الخفية والمعاني المستترة وراء النصوص ويعنينا هنا كشف اسرار بعض تلك النصوص ومنها قوله تعالى في اول سورة بني الاسراء :

(سبحان الذي اسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)[٤٢] وفي قراءة ابن الاثير لهذه الاية أبرز معلمين اساسين من معالم الخطاب الاسلوبي ..

ـ اولهما : التوسع والتفنن في أساليب الخطاب والانتقال من صيغة الى اخرى ..

ـ الثاني : مقصد معنوي وهو اعلى وابلغ .

وإليك عزيزي القارىء بيان هذين المعلمين ففي الاول نقرأ قول ابن الاثير في الآية القرآنية (سبحان الذي اسرى بعبده ليلًا) قال : فهذا وارد بلفظ واحد وعلى جهة الغيبة (أسرى) ثم قال (الذي باركنا حوله) فهذا التفات آخر الى الغيبة ، ولو جاء به على اسلوب واحد لقال (سبحان الذي اسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي بارك حوله ... الخ) وهذا جميعه يكون معطوفاً على أسرى ، فلما خولف بين المعطوف عليه في الانتقال من صيغة الى اخرى كان ذلك تفنناً في الاساليب كما اسلفنا[٤٣] .

وفي بيان المعلم الثاني نجتزىء هذه القراءة للنص قال : لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله (الذي اسرى) اذ لا يجوز ان يقال الذي أسرينا ، ثم استدرك الاول بالثاني فقال (باركنا) ثم قال (لنريه من آياتنا) فجاء على نسق باركنا ، اذ التعظيم مراد الله فهو اعظم العظماء ، ثم جاءت (انه هو) عطفاً على اسرى لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره ، فهنا التفاتات مترادفة في هذه الاية التي جاءت لمعان اختصت بها يعرفها من عرفها ويجهلها من يجهلها كما نص على ذلك ابن الاثير فهذه القراءة أبرزت سمة من سمات الاسلوبية وهي ترتيب المعاني على الالفاظ .

القسم الثاني : الرجوع عن فعل المستقبل المضارع الى فعل الامر وعن الفعل الماضي الى فعل الامر .

وفي هذا القسم ذكر الكاتب نصين من القرآن أكتفي بقراءة الاول منهما وهو قوله تعالى : (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما يشركون)[٤٤] فجملة (أشهد الله) فعل مضارع وكان المنتظر ان يكون الفعل التالي (واشهدكم) ليكون موازناً له في اللفظ موازياً له في المعنى . لكن الفعل الثاني جاء بصيغة الامر في الاية (واشهدوا) فيا ترى ما المغزى الدلالي والاسلوبي الذي يكمن وراء هذا التعبير ؟

أشار ابن الاثير الى هذا المغزى بقوله :

.. إن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهاده لهؤلاء المخاطبين مما هو الا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بامرهم ولذلك عدل به عن لفظ الاول لإختلاف ما بينهما ، وهذا ما قاله الزمخشري بالنص[٤٥] اما صاحب الطراز فقد اكتفى بالاشارة الى هذا المعنى بقوله : ولو أراد المساواة بين الفعل لقال (أشهد الله وأشهدكم)[٤٦] .

وبالرجوع الى حاشية الكشاف لناصر الدين احمد بن محمد المالكي نجد تحليلًا أسلوبياً أوضح من كل ما سبق ، وتلخيص ما قاله : ان صيغة الخبر لا تحتمل سوى الاخبار بوقوع الإشهاد منه ، فلما كان إشهاد الله واقعاً ، محققاً ، عبر عنه بصفة الخبر لانه إشهاد صحيح ثابت ، وعبر في جانبهم بصيغة الامر التي تتضمن الاستهانة بدينهم ، وقلة المبالاة بهم وهو المراد في هذا المقام .

ثم ذكر رأياً آخر حيث يحتمل ان يكون إشهاده لهم حقيقة لإقامة الحجة عليهم ، إنما عدل عن صيغة الخبر الى صيغة الامر

www.dorat-ghawas.com

للتمييز بين خطاب الله وخطاب البشر فصيغة الخبر أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الامر .

القسم الثالث : في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي ، وأورد ابن الاثير تسعة نصوص من قرآن وحديث وشعر ، وساكتفي بنص واحد كما وعدت في بداية الحديث عن الالتفات وهو قول الشاعر تابط شراً :

بـــابي قـــد لقيت الغـــول تهـــوي
بسهب كـــالصحيفـــة صحصحـــان
فـــاضـــربهـــا بـــلا دهش فخـــرت
صـــريعـــاً لليـــدين وللجـــران[٤٧]

وإنما استخدم المضارع (فاضربها) بعد الفعل الماضي (لقيت) في وصف معركته مع الغول لانه أراد ان يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها على ضرب الغول يريهم إياها مشاهدة للتعجب من جرأته على ذلك ولو استخدم الماضي (فضربتها) عطفاً على لقيت لزالت تلك الفائدة ، فالتخيل في المستقبل اقوى وأشد من الماضي فالفعل (أضربها) أوحى للسامع ان تابط شراً في إزاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا المعنى لا يؤديه الفعل الماضي ، وهذا أمر لا خلاف عليه .

وبعد فهذه القراءات الاسلوبية للنصوص في ضوء أسلوب الالتفات من المعالم الاساسية في البلاغة العربية القديمة ، وهي ما يميز بعض كتاب البلاغة التي نهجت هذا المنهج ، وإن كان ابن الاثير أوفر حظاً في هذا الاتجاه كما رأينا فيما مر معنا من مباحث وفقرات .

ثالثاً ـ التقديم والتاخير :

التقديم والتاخير فن من فنون علم المعاني ومع ذلك فقد حظي باهتمام البلاغيين والنحاة على حد سواء مع فارق في المنطلق فالنحويون ينطلقون من منطلق الكشف عن الرتب المحفوظة الثابتة والرتب المتغيرة في الجملة مثل الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر وهكذا .

اما البلاغيون وعلماء الاسلوب فغايتهم من دراسة التقديم والتاخير الكشف عن قيمته الدلالية والنفسية في العمل الادبي ، وقد اتضحت رؤية ذلك في دراسات البلاغيين المبدعين كالجرجاني وابن الاثير والعلوي اليمني والزمخشري وأضرابهم من الاسلوبيين المحدثين وهذا باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة ، كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف بعيد الغاية ، كما أشار الى ذلك عبد القاهر الجرجاني . ويرى ابن الاثير ان التقديم يستعمل على وجهين :

ـ احدهما .. الاختصاص .

ـ والاخر .. مراعاة نظم الكلام .

واجهد ابن الاثير نفسه في توضيح الفرق بين الوجهين من خلال قراءته لعدد من النصوص ذكر فيها التقديم وفرق بين ما كان فيها المقدم بغرض الاختصاص ، وما كان فيها بغرض تحسين النظم[٤٨] ، وذكر في ذلك عدداً من النصوص وقام بتحليلها اكتفى منها بما يأتي :

١ ـ قوله تعالى : (أفغير الله تامروني أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين)[٤٩] .

وها هنا تقديمان :

احدهما تقديم المفعول (أفغير الله) والثاني تقديم المفعول ايضاً (بل الله فاعبد) فإن المفعول في كلا الموضعين إنما قدم بغرض الاختصاص ، اذ لو قيل « أفتامروني اعبد غير الله » لكان الانكار منصباً على الامر بالعبادة ، وليس على عبادة غير الله حيث ان الذي يلي الهمزة هو المنكر في مثل هذا الاسلوب ، من اساليب البلاغة العربية .

والمراد هنا هو ان المختص بالعبادة هو الله وحده دون سواه فكيف تامروني بعبادة غيره ممن لا يستحقها .

أما (بل الله فاعبد) فانه إنما قال بل الله فاعبد ولم يقل (بل اعبد الله) لانه اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون سواه ، ولو تاخر المفعول لزال الاختصاص ، ولجاز ايقاع الفعل على اي مفعول شاء المتكلم فيكون المعنى على هذه الصياغة ، **اعلي صياغة** تاخير المفعول الامر بعبادة الله ولكن دون اختصاص العبادة به سبحانه .

٢ ـ قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)[٥٠] .

والتقديم هنا (والقمر قدرناه) يقول ابن الاثير ان تقديم المفعول به هنا (القمر) على الفعل (قدرناه) ليس من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ، فإنه لما قال (الليل نسلخ منه النهار) ثم قال (والشمس تجري لمستقر لها) فاقتضى حسن نظم الكلام ان يقول (والقمر قدرنا) ليكون الجميع على نسق واحد في النظم ولو اخر القمر لما كان التعبير بتلك الصورة من الحسن .

فهذا التوضيح والتفسير والتعليل لما قدم ، لماذا قدم ؟ وما دلالته مع التقديم ؟ وماذا يعني عند التاخير كل ذلك من

www.dorat-ghawas.com

محاسن القراءة الاسلوبية للنصوص .

بل ان التقديم بجملته يعد معلماً اساسياً من معالم الاسلوبية ، اذ يعد انحرافاً عن الاصل وخروجاً عن اللغة الوضعية ، وما كان انحرافاً عن الوضع اللغوي فهو احد مجالات الاسلوبية او مظهر من مظاهرها حيث ان من التعريفات السائدة للاسلوبية انها انحراف عن النمط المعياري للغة وانتهاك لمألوفاتها[٥١] .

وكما اسلفنا فان التركيب النحوي رتب محفوظة ورتب متغيرة ، وأسلوبية التركيب من النمط الثاني ، حيث يعني هذا النوع من الاسلوبية (رصد حجم الجملة طولاً ، وقصراً وترتيباً) وفي ضوء عملية الترتيب يدرس التقديم والتاخير ، وما يترتب عليه من دلالات ولهذا صنفه ابن الاثير في سياق الصياغة المعنوية التي يحتاج اليها الشاعر والكاتب .

رابعاً ـ في ان قوة اللفظ تدل على قوة المعنى وكثافته :

هذا المبحث من مباحث الصناعة المعنوية عند ابن الاثير حيث تاتي الالفاظ ادلة على المعاني وخدم لها ، فقد عقد ابن جني فصلاً خاصاً لهذا المبحث بعنوان « باب في ان قوة اللفظ لقوة المعنى »[٥٢] .

بيد ان طريقة معالجة ابن الاثير لهذا المبحث طريقة فنية اسلوبية تعتمد على النصوص وتحليلها وتوضيح دلالاتها وفقاً للقالب اللفظي الذي تتركب منه هذه الجملة او تلك ، ولذلك كان تعبيره عن اسلوبية هذا المبحث واضحاً من خلال وضعه في سياق الصناعة المعنوية ومن هذه الصناعات صناعة المعاني في ضوء قوالبها اللفظية ، وعلاقة هذه المعاني بالالفاظ قوة وضعفاً ، ومن ثم جاء تعبيره عن هذا المعنى دقيقاً ينبيء عن حس لغوي اسلوبي فاللفظ اذا كان على وزن من الاوزان كما يقول ابن الاثير ثم نقل الى وزن اخر اكثر منه فلابد من ان يتضمن من المعنى الكثير مما تضمنه أولاً ، لان الالفاظ ادلة على المعاني وامثلة للابانة عنها ، فاذا زيد في اللفظ اوجبت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه لبيانه[٥٣] .

وخلاصة القول في هذا النموذج الاسلوبي ان الباب بجملته قائم على المبالغة في ايراد المعنى وتكثيفه من خلال تكثيف اللفظ الدال عليه ، اما باستخدام صيغ معينة تدل على المبالغة والكثرة كصيغ المبالغة مثلاً او تكرير الحروف نفسها في داخل الكلمة المستعملة لهذا الغرض .

فالاول : مثل كلمة (تواب) في قوله تعالى (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٥٤] فالتواب هو الذي تكررت منه التوبة مرة بعد مرة ، والصيغة على وزن الافعال ، وذلك ابلغ من تائب الذي على وزن فاعل فتائب اسم فاعل صيغة تدل على الفعل وفاعله اما تواب فتدل بصيغتها هذه على كثرة الفعل وكثافته .

والثاني : مثل (كبكب) في قوله تعالى (فكبكبوا فيها هم والغاوون)[٥٥] فان معنى (كبكبوا) من الكب وهو القلب كما يقول ابن الاثير الا انه مكرر المعنى وانما استخدم في الاية للدلالة على شدة العقاب وتكرره مرة بعد اخرى .

وهذا ضرب من ضروب القراءة الاسلوبية سلكه ابن الاثير في جملة ما سلك من انواع القراءة الاسلوبية المتعددة للنصوص لاستنباط المعاني المختلفة فتارة يفيد من الكلمة المفردة ، وتارة من الصيغة المستخدمة في السياق او ذاك وتارة يفيد من الاصوات المكررة في الكلمة الواحدة وقد وظف كل هذه الاساليب توظيفاً متميزاً في استخراج الدلالات وابراز جماليات النصوص التي وضع عليها لمسات التحليل الاسلوبي .

الخاتمة

وبعد فقد آن الاوان ان نزيح عن كنوز ثقافتنا ما لحقها من تشويه كي نبرز محاسنها وصفاء وجهها ومعالم الجمال فيها ، وربما كشف هذا المبحث القناع عن بعض ملامح ذلك الجمال .

وأزعم ان البحث قد ركز على اهمية بالغة في التعبير عن مشاعر الفرد ورغباته وافكاره فهي الوسيلة الاهم في تطوير المواهب وتنمية العقول واخصاب الخيالات ، واذا كان للغة هذه الاهمية في عمومها فان للغة الكتابة واساليب الانشاء ولغة التحليل الادبي اهمية مبالغة في ارساء قواعد البحث ومناهج التفكير .

وقد حاول الباحث تتبع منهج ابن الاثير في قراءة النصوص والتحليل الاسلوبي وبين معالم ذلك المنهج في ضوء قراءته لكتاب (المثل السائر) مقارناً بين منهج المؤلف وآراء البلاغيين العرب والاسلوبيين المحدثين .

وقد كانت نتيجة هذا البحث الخروج بمعالم ابداعية في اللغة والادب والنقد ترسمت خطى مناهج البحث المعاصرة بناظرة ابن الاثير الاصولية . فما اهتدى اليه المحدثون من معالم الاسلوبية أزعم ان ابن الاثير قد اهتدى الى الكثير من تفاصيله .

وهذا هو الجديد الذي قامت عليه قناعات الباحث وتميز به هذا البحث بعد الخوض في اعماق التراث ، فإحياء اللغة وابراز محاسنها ، وتذوق النصوص وتلمس جمالياتها اهداف سامية لاي بحث ادبي بلاغي ولا شك ان ابن الاثير قد بذل جهداً اصيلاً وجمع بين الغزارة العملية والتذوق الفني والتحليل الاسلوبي .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

www.dorat-ghawas.com

الهوامش

(١) الاسلوب . الشائب ، احمد : مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٨ ، ١٩٩١ م ، ص ٤٧ .

(٢) دلائل الاعجاز . الجرجاني ، عبد القاهر ، ص ٣٧ تح محمود شاكر مكتبة الخانجي القاهرة ط ٢ / ١٩٨٩ م .

(٣) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر . ابن الاثير ، ضياء الدين نصرين محمد تح محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية بيروت جـ ١ ص ٨٧ وما بعدها .

(٤) ديوان المتنبي دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٩٣٨ م ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .

(٥) المثل السائر ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

(٦) المصدر السابق جـ ١ ، ص ٩٩ .

(٧) للتوسع في ذلك يراجع الطرابلسي عبد الهادي : منهجية الدراسة الاسلوبية ، حلقات : اللسانيات واللغة العربية المحور الثالث تونس .

(٨) دلائل الاعجاز . الجرجاني ، ص ٥٥ .

(٩) سورة الاحزاب الآية (٤) .

(١٠) سورة آل عمران آية (٣٥) .

(١١) مقالات في تاريخ النقد العربي (٤٢٥) من منشورات وزارة الثقافة والاعلام . د . داود سلوم ، داود دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨١ م .

(١٢) القاموس المحيط ـ الفيرز آبادي : مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط الثانية ، ١٩٨٧ م ، مادة (جوف) .

(١٣) لسان العرب . ابن منظور : صادر / بيروت ، مادة (جوف) ط الاولى بدون تاريخ .

(١٤) سورة الاعراف آية (١٣٢) .

(١٥) ديوان الفرزدق . والزرب المدخل والزريبة ، موضع الغنم .

(١٦) المثل السائر ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(١٧) دلائل الاعجاز ، ص ٤٤ .

(١٨) سورة الانعام آية (١٠٠) .

(١٩) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ .

(٢٠) المثل السائر ط ١ ص ١٩٥ .

(٢١) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

(٢٢) سورة الاحزاب آية ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢٣) سورة الضحى آية (٩ ـ ١٠) .

(٢٤) المثل السائر ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٢٥) الاسلوبية والاسلوب . بير جيرو : ص ٣٢ .

(٢٦) سورة الفرقان آية (١١ ـ ١٣) .

(٢٧) تحليل النص الشعري ترجمة : د . محمد فتوح احمد ـ دار المعارف ـ القاهرة ، ص ١٢٩ .

(٢٨) المثل السائر ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢٩) شرح المعلقات السبع للزوزني ـ دار الفكر / بيروت ، ص ١٨ .

(٣٠) ديوان المتنبي : تح البرقوقي ـ دار الكتاب العربي / بيروت ـ جـ ٤ ، ص ٣٨٣ .

(٣١) ديوان الابرص ، عبيد : شاعر جاهلي عاصره امرؤ القيس وله معه مناظرات . (٣٢) المعلقات السبع ، ص ٣٦ .

(٣٣) ديوان ابي نواس : ت د . بهجت عبد الغفور ـ دار الرسالة / بغداد ١٩٨٠ م .

(٣٤) الطراز المتضمن لاسرار البلاغة ، ص ٤١٤ .

(٣٥) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر : ت مفيد قميحة ـ دار الكتب العالمية / بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٤ م ، ص ٣١ .

(٣٦) ظواهر اسلوبية في الشعر الحديث د . احمد الزمر ، مركز عبادي للشرط ط ١ صنعاء ١٩٩٦ م ، ص ٤١ .

(٣٧) المثل السائر ، جـ ١ ، ص ٣٤٣ .

(٣٨) ديوان البحتري : جـ ١ ، ص ٢٤٢ ، ورواية الديوان (اذا انصرفت) والقصيدة في مدح احمد بن المدبر واخيه ابراهيم واولها :

عناني من صدودك ما عناني
وعاودني هواك كما بداني

(٣٩) مدخل الى علم الاسلوب ـ د . شكري عياد ـ من منشورات اصدقاء الكتاب / القاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٩٢ م .

(٤٠) نقلًا عن حوليات ـ كلية الاداب جامعة الكويت الحولية ١١ ـ وعنوانها (النظرية الاستبدالية للاستعارة) د . يوسف أبو العدوس سنة ١٩٩٠ م .

(٤١) سورة ابراهيم آية (٤٦) .

(٤٢) سورة الاسراء آية (١) .

(٤٣) المثل السائر ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(٤٤) سورة هود آية (٥٣ ، ٥٤) .

(٤٥) الكشاف ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٤٦) الطراز للامام يحيى بن حمزة ، ص ٢٦٧ .

(٤٧) البيتان وردا في الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، ج ١٨ ، ص ٢١٠ ، بولاق وهما من قصيدة مطلعها :

الا من مبلغ فتيان فهم
بما لاقيت عند رحى بطان

(٤٨) المثل السائر ، جـ ٢ ، ص ٣٦ .

(٤٩) سورة الزمر آية (٦٤ ، ٦٥) .

(٥٠) سورة يس آية (٣٧ ، ٣٩) .

(٥١) علم اللغة والدراسات الادبية ـ برند شبلنر : ترجمة محمود جاد الرب ـ الرياض ، ١٩٨٧ م ط الاولى ، ص ٧٥ .

(٥٢) الخصائص ، جـ ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٥٣) المثل السائر ، جـ ٣ ، ص ٥٦

(٥٤) سورة التوبة آية (١٠٨) .

(٥٥) سورة الشعراء آية (٩٤) .

www.dorat-ghawas.com